صفحة من تاريخ التجارة المصرية

التنازع والتخاصم بين مصر والبرتقال على احتكار تجارة الهند

(تابع ما قبلهُ)

كل هذه المساعي وكل هذه المعاكسات لم تمنع البرتقال من الاستمرار على تحقيق الغرضين اللذين جعلوهما نصب اعينهم وهما توسيع النطاق لتصريف البضائع الصادرة من بلادهم بافتتاح أسواق جديدة لها وإلغاء تجارة العرب والمصريين باغراق سفائنهم التجارية. ولقد توصلوا الى المراد من الوجهتين. فانهم كما قال قطب الدين النهروالي « صاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً و يأخذون كل سفينة غصباً الى ان كثر ضررهم على المسلمين وعمّ اذاهم المسافرين » اوكما قال مؤرخو الافرنج من ان عدد السفائن المصرية والعربية التي أغرقوها قد جاوز الحصر لانهم كانوا اينما صادفوها في عرض البحر او بجوار السواحل ارسلوا عليها شواظاً من نار او خرقوها بقنابل الاحجار حتى لا يبقى لها مقر الاّ في قرارة البحار ثم يذبحون الناجين من رجالها من التجار والسفار. فلم يجسر العرب أن يقتربوا بسفائنهم من سواحل كنارا (Canara) وملبار فغيروا خط سيرهم عند رجوعهم بالتجارات من جزائر ملك (Malacca) فبدلاً من المرسى على كاليكوت للذهاب الى عدن او الى هرموز صاروا يسيرون بسفائنهم الى الطرف الجنوبي من جزيرة سرنديب (سيلان) او الى جزائر ملديو (Maldives). وكان في ذلك الاغراق العظيم نجاة لهم في بعض الاحايين من الوقوع في ايدي البرتقاليين ولذلك كانت بعض التجارات تنقل الى ديار مصر ومنها الى البندقية. ذلك لان المحيط الهندي فسيح المدى بعيد الجنبات وليس في الامكان مراقبة مياهه وثغوره اللهم الاّ بعمارة بحرية لا عداد لها ولم يكن ذلك باليسور للبرتقال. فلذلك رأى عمانوئيل الثاني في سنة ١٥٠٥ م (٩١١ هـ) انهُ لا يتسنى لهُ حفظ مركزه التجاري والسياسي الاّ بابقاء اسطول حربي مستديم في بحر الهند وارسال جيش كامل العدد والآلات لاحتلال بنادر تلك البقاع بصفة عسكرية مستمرة. وجعل من اخص واجبات الاسطول ترصد سواحل البحر الاحمر عند باب المندب وامرهُ باحتلال جزيرة سقُطْرى (Socotra) إذ كان لا مندوحة للسفن المصرية عن غشيان هذه القاعدة البحرية المهمة لاخذ الماء. وقد ساعدهُ حسن الطالع وخدمهُ التوفيق فدخلت هذه الجزيرة تحت حوزته في سنة ١٥٠٦

(٩١٢ هـ) . فامتلك بذلك زمام الطريق الذي بين مصر والهند وتمكن من منع المواصلة بينهما منعاً باتاً . ثم تمادى في تشديد التضييق على مصر ليخنقها خنقاً تجارياً كاملاً . فلم يكتفِ بسد الطريق البحري بل عمد الى الطريق البري ايضاً حتى لا يبقى لمصر سبيل ما لاستيراد شيء مطلقاً من بضائع الهند لا من البحر ولا من البر . ولتحقيق هذا الغرض الثاني استولى واليه بالهند على هرموز في سنة ١٥٠٧ (٩١٣ هـ) وهي مفتاح الخليج الفارسي وعنها تصل التجارات الهندية الى البصرة فالفرات فبلاد الشام التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من السلطنة المصرية

حينئذٍ ضاقت الدنيا في وجه السلطان الغوري ورأى من اوجب الواجبات ان يبادر لاجابة الصريخ الذي كان يتوالى عليه من بلاد الهند وتنظيف البحار من اساطيل البرتقال واعادة التجارة الى مصر كما كانت

فأصدر امرهُ الى اسطولهِ العظيم المجتمع في ميناء جدة بمباشرة القتال . ورأى ان الامر سيطول نظراً الى ما وصل اليهِ البرتقال من ترسيخ اقدامهم وتثبيت مراكزهم في بلاد الهند وفي بحارها ولذلك كان الغوري على يقين انهُ لا مندوحة لهُ عن الاستمرار في المزيد من الاهبة والاستعداد لتسيير الامداد وراء الامداد حتى يقهر ذلك الخصم العنيد ويكسر شوكتهُ ويستأصل شأفتهُ فتعود لهُ السيطرة السياسية في تلك الاقطار وينفتح طريق التجارة اليهِ والى بلادهِ كما كان . فلذلك بذل جهدهُ في توفير معدات القتال وبذل سعيهُ لدى السلطان بايزيد سلطان القسطنطينية ولدى جمهورية البندقة للحصول على ما لا يوجد في بلادهِ من الادوات ورجال المدافع

كان الغوري اعلم الناس بحالة تلك الجمهورية وبما اصابها من الضعف امام العثمانيين الذين امتلكوا كثيراً من مستعمراتها من جهة الشرق ويهددون البقية الباقية لها وبما وقعت فيهِ من المحن والخطوب بسبب عصبة كمراي Ligue de Cambrai التي تحالف فيها الامبراطور مكسيليان الاول امبراطور المانيا ولويس الثاني عشر ملك فرنسا وفرديناند الكاثوليكي ملك قشتالة والبابا يوليوس الثاني وتعاهدوا في سنة ١٥٠٨ (٩١٤ هـ) على مناوأتها بالشر والعدوان . كان الغوري اعلم الناس بانها اذا تسعى بدسائسها الخفية ووسائلها السياسية لحفظ ثروتها ومكانتها بتحريش مصر على البرتقال دون ان تظهر امام اوربة بمظهر المؤيد للسلطان . وقد رأينا آثار ذلك فيما قالهُ للراهب الاسباني موروس (Maurus) الذي بعث بهِ الغوري سفيراً اليها والى البابا والى اسبانيا والبرتقال . غير ان الغوري كان

ينتظر منها على الاقل ان توافيهُ بما هو في مقدورها من الخشب والآلات والعدد الحربية والخبيرين باطلاق المدافع . ولكنهُ لم يكن على ثقة من اقتدارها على اجابة طلبهِ

فلاجل عدم ضياع الوقت سدى بعث الغوري الى السلطان بايزيد العثماني في سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ثم في سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) بان يوافيهُ بما يحتاجهُ من الخشاب البناء وربابنة البحر والمدفعيين فبادر الى اجابتهِ وبعث لهُ بما طلب على سبيل الهدية

وفي نفس سنة ٩١٣ هـ المذكورة ارسل الغوري ايضاً الى خلفائهِ البنادقة سفيراً من قبلهِ واختار في هذه المرة رجلاً من امراء مصر وهو الامير تغري بردي رئيس التراجمة بديوان الانشاء (وهو الذي حرّف الافرنج اسمهُ فجعلوهُ (Tangriberdi) [1] فوصلها في ١٧ سبتمبر سنة ١٥٠٧ (١٠ جمادى الاولى سنة ٩١٣) وقد تفاوض مع الجمهورية في مسائل تجارية متعددة طبقاً لمأموريتهِ الظاهرية ازمنية ولكنهُ كان مكلفاً في الحقيقة ونفس الامر بشؤون سياسية اخصها يتعلق بالنزاع الذي اوجدتهُ دولة البرتقال وبمطالبة الجمهورية ان تبعث للسلطان ما يحتاجهُ من المعدات الحربية (اخشاب وآلات ورجال خبيرين بمعالجة المدافع)

والظاهر انها وعدت السفير في السر واظهرت بانها ستعمل ما في وسعها لتلبية السلطان الى مطالبهِ . ولكنها من باب التمويه على دول اوربا اظهرت انها اجابت السفير المصري بانها اذا فعلت ذلك تنزل من مكانتها في اعين الامم النصرانية وتصبح في معزل عنها وفي ذلك كل الضرر عليها وقد نصحتهُ بان يشير على السلطان بطلب ما يحتاجهُ من القسطنطينية وانهُ اذا كان في حاجة الى خشب البناء فما عليهِ سوى ان يستجابهُ من الاناضول

وقد رأينا ان السلطان لم يتربص حتى تأتيهُ هذه المشورة . فقد قدمت انهُ في سنة ١٥٠٧ (٩١٣ هـ) ثم في سنة ١٥١٠ (٩١٦ هـ) طلب من سلطان العثمانيين المدافع واخشاب البناء والقياطين والمدفعيين كما سبق لنا بيانهُ بالايجاز

وكان الاسطول المصري قد تحرك من جدة في استعداد تام للقيام بمأموريتهِ . وقد اختار الغوري لهذه الحملة رجلاً من رجالهِ المقاويز وهو الامير حسين الكردي : من اهل الشدة والبأس مشهور بالشجاعة والاقدام حسن التدبير خبير بالسياسة وفوق ذلك كان من ذوي الابهة والعظمة بحيث انهُ اذا ضم اوطاقهُ في سفر او حضر اقام الجنود والاعوان

---

(١) والغريب من هذا التحريف انهم لم يكرامنهم له جعلة بعضهم يهودياً اندلسياً تنصر ثم تعلم

من حوله اظهاراً للحرمة والناموس لادخال الارهاب في القلوب والاجلال في النفوس . وكانت لهُ اسطة ممدودة في الحل والترحال وكان بذولاً للطعام واكولاً يسترق وحدهُ الظروف باكلهِ . ولكنهُ كان دخيلاً في طائفة البراكسة لا يملأ اعينهم ولا يعتبرونهُ فيما بينهم وكان الغوري معتنياً بامرهِ عارفاً بقدرهِ ويخشى عاديتهم عليهِ [1] . لاجل ذلك ولما امتاز بهِ الامير حسين من الصفات التي ذكرناها ندبهُ السلطان لهذه المهمة الخطيرة وما زال يجد السير ويجوب البحار حتى وصل الى ساحل مليبار في اواخر سنة ٩١٢ (سنة ١٥٠٧ م) فالقى مراسيهُ على بندر ديو (Diou) من اعمال كجرات بثلاث عشرة سفينة حربية جاءنا تفصيلها عن مؤرخي البرتغال إذ قالوا ان عمارتهُ هذه كانت عبارة عن ستة اغربة وغليون واحد وست سفائن كبيرة . واجتمع بسلطان كجرات يومئذٍ وهو خليل مظفر شاه فاكرمهُ وعظمهُ وانعم عليهِ بنعمة طائلة وامر عاملهُ على ديو وهو المالك [2] إياس بان يكون هو وسفنهُ الحربية تحت تصرف الامير المصري

ذهب الامير حسين يبحث عن الاسطول البرتغالي حتى التقى بهِ امام مدينة شيول (Chaul) في رمضان سنة ٩١٣ (يناير سنة ١٥٠٨) وكان هذا الاسطول معقود اللواء لنجل والي الهند البرتغالي وهو الفتى لورنسو ألميدا (Lorenzo Almeida) فهجم عليهِ الامير حسين وانتصر عليهِ نصراً مبيناً وقبض على غراب الاميرال الذي ذاق كأس الحمام في اثناء المعركة . وربح الامير حسين تحقق على رأسهِ وعلى سواري اسطولهِ المصري رايات الظفر والفلاح فاقام بميناء ديو مدة شهور منتظراً انقضاء فصل الامطار . فارسل اليهِ السامري من ساحل مليبار اربعين غراباً كلها صغار لتكون في خدمتهِ وطوع اشارتهِ . وبينما هو يتأهب لاستئناف القتال اذا بالاسطول البرتغالي مؤلفاً من ١٩ قطعة حربية قد داهمهُ بغتة واخذهُ على غرة في مياه ديو . وكان المتولي الزعامة والرياسة في الاسطول البرتغالي هو فرنسيسكو ألميدا والي الهند الشرقية لينتقم لراية بلادهِ وليأخذ بثار ولدهِ الذي قتلهُ الامير حسين . فما هو الاَّ ان احسَّ هذا الامير باقتراب الاسطول البرتغالي حتى حمد اليهِ من غير استعداد وخرج معهُ اسطول السامري واسطول كجرات فاشتبكت معركة بحرية هائلة وهي المعروفة بمعركة ديو سنة ٩١٥ هـ (سنة ١٥٠٩) فكان الاسطول البرتغالي لا يقصد بناره وقنابلهِ سوى غربان الامير المصري حتى استولى على

(١) عن البرق اليماني (٢) هذا اللفظ يستعملهُ اهل الهند في معنى ملك وامير . وهو في هذا المقام بمعنى الامير او العامل تركنا نقول في هذه الايام بمصر « المحافظ »

بعضها وطاح الباقي سنها وانهزم الامير حسين شر هزيمة ولكن لم يقع في قبضة الاعداء بل تمكن من الرجوع الى مصر ومعهُ فلول الاسطول

فلم يبق في وجه البرتقال مانع دون التمادي في مشروعاتهم في شهر مارس سنة ١٥٠٥ القعدة سنة ٩١٠ ذهب والي الهند الفونسو البوكرك بعمارة بحرية لاقتحام بحر العرب وكان قصدهُ ان يبني قلعة في عدن واخرى في جزيرة كمران تمهيداً لما يطمح اليهِ من الاستيلاء على سلطنة مصر نفسها او على الاقل تحويل مجرى النيل عنها وجرّ الخراب عليها وذلك بناء على ما كتب بهِ اليهِ ملك البرتقال

فلما شرع في منازلة عدن صدّهُ الامير مرجان العامري واضطرهُ للرجوع على اعقابهِ منهزماً مدحوراً . وفي هذه الموقعة قتل مارشال الجيوش البرتقالية وجرح والي الهند نفسهُ

فلما رأى الغوري انكسار اسطوله ورأى ما يحاولهُ البرتقال من الاستيلاء على البحر الاحمر تمهيداً لاخذ مصر نفسها اخذتهُ الغيرة الشديدة وواصل العمل ليل نهار حتى جهز اسطولاً مؤلفاً من ٢٢ غراباً كبيراً وغليونين في استعداد تام وامّر الامير سليمان الرومي العثماني مع الامير حسين و بعثهما الى بحر الهند لاعادة الكرة على البرتقال والاخذ بالثار . وكان الامير سليمان من طائفة اللوند فاتكاً شجاعاً ذا معرفة بالحروب خصوصاً بالمدافع والبنادق[1] . وكونهُ من اللوند وصفهُ باروس في كتابي قطب الدين و بالعثماني في تاريخ ابن إياس يشعر بانهُ من القبطان الخبيرين بسلك البحار الذين بعثهم السلطان بايزيد الى الغوري حسبما سبقت الاشارة اليهِ لاسيما وانهُ ذو معرفة بحرب المدافع والبنادق . وقد اراد الغوري ان يحفظ جدّة من هجوم الافرنج وان يقطع دابر الفتن التي كانت مشتعلة فيها بسبب تشاحن اولاد امير مكة مع ابيهم مما اوجب اضطراب الامن واختلال النظام في الحجاز . ولذلك انعم السلطان الغوري على الامير حسين بنيابة جدّة وجعلها اقطاعاً « تيماراً » لهُ وجهز معهُ ٨٠٠ مملوك وطوائف كثيرة من المغاربة واللوند[2]

قام الامير حسين بهذا الاسطول الرهيب المهيب فوصل جدة في سنة ٩١٧ (١٥١١م)

---

(١) انظر قطب الدين في تاريخ مكة (٢) هذا الاسم مأخوذ عن اللغات الافرنجية عن كلمة Levant ومعناه « المشرق » واصلهُ في اللغالب من اسيا الصغرى وما جاورها من البلدان وقد سمّى الافرنج بهذا الاسم Levantis يعني الشارقة وجاراهم المصريون باستعمال لفظ سمرّيا « لوند » والمقصود بهم العساكر المتطوعون بوجه عام وجنود الاسطول بنوع اخص . وقد كانت قبائلهم مختلفة ولا يعنينا ابناء مصر حاليا يطلقون اللغة اللوندية واللسان اللاوندي على كل رطانة غير مفهومة

ورأى البرتقال يهددونها من جهة البحر وتخطفه العرب من جهة البر . فعوّل على تحصينها لمنع هـذا الخطر المزدوج عنها . وقد تجرّد بهمته الشماء لبناء سور يحيط بها . وحصّنهُ بالابراج المتينة المحكمة وقد استعمل في ذلك الشدة المتناهية التي تقضي بها تلك الظروف الحرجة فهدم كثيراً من البيوت القريبة من موضع الاساس واستعمل حجارتها في البناء واستخدم عامة الناس حتى التجار المعتبرين وسائر المتسببين في حمل الحجر والطين والتراب . لجأ الى الصرامة العسكرية في معاملة البنائين بحيث يحكى ان احدهم تأخر قليلاً عن المجيء في الميعاد المقرّر فامر بان يبنى عليهِ قبرهُ في جوف الحائط الى يوم يبعثون . ويجلهُ المثابة تمكّن من الفراغ من تحصين جدّة في عام واحد وجاء هذا السور من احسن المباني هناك حتى عدّهُ ابن اياس من حسنات الغوري . وفي اثناء ذلك كان الامير حسين يجمع المال ويستوفي الاهبة للمهمة الاصلية واخذ الثأر من البرتقال واقصائهم من الهند و بنادرهِ وبحارهِ . حتى اذا تمّ تدبيرهُ واحكم امرهُ برح جدّة قاصداً بلاد الهند فلما وصل الى سواحل اليمن ارسل الى السلطان عامر بن عبد الوهاب يطلب منهُ الميرة والاعانة مدلاً عليهِ بما سبق لهُ من المكاتبات الى السلطان الغوري في طلب النجدة منهُ . فلما وصل رسول الامير حسين بهدية كبيرة الى عامر اراد عامر ان يمدّهُ بما اراد من الميرة وغيرها فمنعهُ من ذلك وزيرهُ وقال : « اذا اعطيتم شيئاً يصير عادة عليك تطالب بها كل عام . وكلام الشيخ مطاع والبخل والامساك مركوز في الطباع فاستصوب رأيهُ . وكم من كلمة شؤم تخرب الديار وتؤول الى الخسار والدمار ! فارسل السلطان عامر الى الامير حسين جواباً غير لائق ولم يرسل اليهِ شيئاً ومنع الميرة من كران . فتشاحنت النفوس لذلك . واراد الامير حسين انكاء السلطان عامر واخراب دارهِ وديارهِ . فحدثتهُ نفسهُ بأخذ اليمن وحسّن لهُ ذلك من حولهُ من الجند والاوند . وشرع في اسباب ذلك » [1] فابتدأ باحتلال جزيرة كمران وشيد فيها قلعة ذات ابراج في مدة تسعة شهور وجعلها قاعدة بحرية لاسطولهِ . ثم نازل السلطان عامر بن عبد الوهاب حتى انتصر عليهِ واستولى على زبيد « ودخلها بعسكر كبير من الترك والاوند والمغاربة والمصريين والشاميين ومعهُ الامير سنان الرومي ومن انضاف اليهم من الزيديين واهل جازان وذلك ... ضحى يوم الجمعة تاسع جمادى الاولى سنة ٩٢٢ (١٠ يونيو سنة ١٥١٦) .... واقام بزبيد سبعة وعشرين يوماً .... ثم خرج يوم الخميس ١٧ جمادى الآخرة سنة ٩٢٢ (١٩ يوليو سنة ١٥١٦) واقام عشرة ايام . وسار هو وسلمان الريس ...

(١) عن البرق اليماني

في اثنين وعشرين غراباً وقليونين الى بندر عدن وبها الامير مرجان العامري . فوصلوا في ١٣ رجب سنة ٩٢٢ (٣٠ اغسطس سنة ١٥١٦) . وكانت عدن معمورة ترد اليها السفائن من بنادر الهند وبها التجار الكبار والاموال الجزيلة فصادف الامير حسين آخر موسم الهند . وقد سافرت السفائن وراوا قلاعهم وهي مسافرة فوجه اليهم سلمان اغربة فاخذ مركباً منها كان لعامر بن عبد الوهاب فاستولى سلمان عليهِ وجيزهُ الى كجرات وارسل فيهِ مكاتبات الى السلطان مظفر شاه يذكر فيها ان الامير حسين اخذ اليمن وملكها وانهُ عائد بعد ذلك الى الهند لاخذ البرتقال[1] . ولكن الامير حسين لم يقدر على اخذ عدن ولا ذهب الى الهند للقيام بمأمورية الاصلية بل رجع الى جدة وارتكب فيها كثيراً من المظالم حتى قيل صبر صاحبهِ سلمان لانهُ رآهُ يكثر من قتل المسلمين وقتالهم ففارقهُ بعد ان وقعت الحرب بينهما

فكان من سعادة البرتقال اختلاف هذين الاميرين قبل وصولهما الى محل مأمورية سيما لاسيما وقد وقع بينهما من الشحناء والشقاق ما ادّى الى التخاذل والافتراق . بل كان من تمام سعادة البرتقال ان السلطان سليم تحرك على السلطان الغوري في تلك السنة بعينها (سنة ٩٢٢ هـ) فاشتغل ولي الامر في مصر بالدفاع عن مملكتهِ وتاجهِ واهمل الهند وبحارها وبرتقالها . فخلا لهم الجوُّ فباضوا وصفروا ونقروا

مات الغوري في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ (٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦) بمرج دابق عند حلب . ومات الامير حسين غريقاً في مياه جدة بامر السلطان سليم الثاني فذهب طعمة للاسماك كما راح سيدهُ شهيداً تحت سنابك الخيل . وكانت امور مصر في اضطراب وحكومتها الاهلية في حروب وكروب وخطوب مع بني عثمان حتى استقرت فيها اقدام السلطان سليم واشتغل بتوطيد احكامهِ فيها . فلم تكن للحكومة الجديدة همة او فرصة لتعقب البرتقال ولا قوة لاستعادة التجارة الى اسواق الاسكندرية ودمياط

وبذلك كمل السعد خدمتهُ للبرتقال فانهم تخلصوا من الشخص الوحيد الذي كان في وسعهِ ان يعرقل مساعيهم ويوجه قواتهِ كلها عليهم واعني بهِ الغوري سلطان مصر الذي ربما كان يتأتى لهُ ان يقهرهم ويردهم على اعقابهم مدحورين . وحينئذٍ ثبتت هيبتهم في بحار الشرق وتوطدت دعائم سلطتهم باسم عمانويل السعيد ملك البرتقال . وجعلوا لشونة في

(١) عن البرق اليماني

المخزن الوحيد لجميع تجارات آسيا . ثم توسعوا فارادوا امتلاك البحر الاحمر ايضاً حتى لا يكون لهذه التجارة منفذ كبير ولا صغير الا وهو في قبضة ايديهم . ولكنهم كانوا كما قال الشاعر

اذا تم شيء بدا نقصهُ ترقب زوالاً اذا قيل تم

فقد قضى الله ان كل من اراد الكنانة بسوء قصم الله ظهرهُ ولو بعد زمان طويل . ذلك انهم رجعوا لاحلامهم القديمة وهي امتلاك البحر الاحمر والاستيلاء على مصر . فعاودوا الكرة مرة اخرى باسطول مؤلف من ثمانية وعشرين غراباً حربياً فتقدموا حتى وصلوا في فبراير سنة ١٥١٧ (صفر سنة ٩٢٣) امام جدة والقوا الرعب بين اهليها دون ان يفوزوا منها بطائل . فلقد اخفقوا امامها وعادوا بالفشل اذ تصدى لهم الريس سلمان ببقايا ما كان لمصر من اسطول وجيش فردهم عنها خاسرين . فارادوا في عودتهم ان يأخذوا بثأرهم من عدن فارتدوا عنها مدحورين . وعلى ذلك بقيت السفائن العربية تروح وتغدو في البحر الاحمر دون منازع ولا ممانع . ولكنها اذا حاولت دخول بحر الهند فهلاكها محقق اكيد

هكذا انقطعت تجارة الهند مرة واحدة عن مصر ! وهكذا فقدت مصر ثروتها واستقلالها في عام واحد !

وخلاصة القول ان اكتشاف طريق الهند عن رأس الرجاء الصالح قد قوض دعائم الثروة في جميع البلدان الاوربية الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط وجر الخراب المالي على مصر لانهُ قتل تجارة المشرق التي كانت تنهال عليها . فلا يمكن اعادة هذه التجارة الى المياه القديمة لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة لايجاد هذه المعجزة الخارقة وهي فتح قناة السويس

ففي حدود سنة ١٥٠٠ م (٩٠٦ هـ) فكر البندقة في ذلك وارادوا ان يستميلوا السلطان الغوري بواسطة سفيرهم الى هذا العمل الجليل بل انهم دونوا هذا الطلب في جملة التعليمات التي قرروا اصدارها الى سفيرهم بالقاهرة . ولكنهم عادوا فحذفوهُ خوفاً من ان يفهم السلطان انهم لا يقصدون الا مصلحتهم الشخصية . ثم كان العثمانيون اول من سعى في انفاذ هذا المشروع في العصور الحديثة . فانهم استخدموا في سنة ١٥٢٩ م (٩٣٦ هـ) عشرين الف عامل لاعادة الترعة التي كانت تصل البحر الاحمر بالنيل في ايام الفراعنة الاقدمين وفي صدر الاسلام . ولكنهم لم يتموا ذلك فبقي هذا المشروع العظيم النافع (الذي هو مصداق لما قيل عن مصر « خيرها اميرها ») يتردد في الاحلام وتحوم حولهُ هم الرجال الى ان تم انجازهُ

في عصر ابي الفدا اسماعيل ابي صاحب العظمة السلطان الكامل ابي الكمال حسين الجالس الآن على عرش مصر ابقاهُ الأ ملاذاً للكنانة وذخراً للعاملين من ابنائها على احياء مصر بالعلم والزراعة والتجارة . والله حسبي ونعم الوكيل احمد زكي

سكرتير مجلس الوزراء

الوجوه الصناعية

واخفاء تشوه الوجه

من ويلات هذه الحرب ومن اقبحها تشويه الوجوه . يمضي الشاب اليها كامل الخلقة جميل الطلعة تفتخر بنظره امهُ واخواتهُ وتبتهج برؤيته زوجتهُ او خطيبتهُ فاذا اخطأ رصاص العدو مقاتلهُ فقلع مخاطهُ شظايا القنابل فتشوهُ وجههُ تشويهاً قبيحاً تفوّر عينيهِ او تحط حاجبيهِ او تصلم اذنيهِ او تقطع شفتيهِ او تمزق خديهِ او تجدع انفهُ او تفعل ذلك كلهُ او اكثرهُ فيُنقل الى المستشفى اذا لم يقضَ عليهِ من شدة الصدمة ويعالجهُ الجراح حتى تلتئم جروحهُ ولكنهُ لا يستطيع ان يخلق لهُ عيناً بدل العين المقلوعة وحاجباً بدل الحاجب المحطوط واذناً بدل الاذن المصلومة وشفة بدل الشفة المقطوعة وخدًّا بدل الخد الممزوق وانفاً بدل الانف المجدوع فيخرج من بين يديهِ اذا شفي يرتعب منهُ كل من يراهُ وهو يرتعب اذا تطلع في مرآة . ويقوم في نفسهِ انهُ قبيح المنظر يكره الناس رؤيتهُ فيستولي عليهِ اليأس والخمول ويحسب نفسهُ عالةً على البشر ولو كان من الاغنياء او الوجهاء او العلماء

الاَّ ان ما يعجز عنهُ الاطباء والجراحون لم يعجز عنهُ النقاشون والمصورون فقد كتب كاتب اديب في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر ان نقاشاً من صانعي التماثيل اسمهُ درونت وُد انتظم في سلك الجنود الانكليزية سنة ١٩١٥ كجندي بسيط يُعمل خادماً عملهُ غسل الصحون (كما كان شغل الكاتب نفسهِ في اول الامر) ولما رأى تشوه وجوه الجنود وضاطهم خطر لهُ ان يصنع لهم وجوهاً صناعية تشبه وجوههم الطبيعية قبل تشوهها فيلبسونها ويخرجون بين الناس فلا يعلم احد من الذين يرونهم انهم لابسون وجوهاً صناعية

لما كان جدْع انف الخصم او المجرم عادة متبعة عند العرب في عهد الجاهلية وبداءة الاسلام كان مجدوع الانف يضع بدلاً منهُ انفاً من الفضة ولا نعلم هل كانت الفضة تبقى